الفنون والتراث كحصن ثقافي: دورهما في حماية الأمن القومي العربي

د.تقوى مناد: دكتوراه في جماليات الفنون وممارساتها/ جامعة سوسة، تونس- رئيسة وحدة دراسات الفنون والموسيقى والتراث الشعبي في المعهد العالمي للتجديد العربي

المقدمة

في عالم تتسارع فيه التحولات السياسية والاجتماعية، وتتصاعد فيه التهديدات غير التقليدية التي تستهدف الهوية والتماسك المجتمعي، يبرز دور الفنون والتراث كخط دفاع أساسي في حماية الأمن القومي العربي. فالأمن لم يعد مقتصرًا على القوة العسكرية أو الاقتصادية، بل امتد ليشمل الأمن الثقافي، الذي يُعدّ حجر الزاوية في صمود الأمم أمام محاولات الاختراق والتذويب.

إذًا، كيف يمكن للفنون والتراث أن يشكلا حصنًا منيعًا يحفظ الذاكرة الجمعية ويواجه التحديات التي تهدد كيان الأمة العربية؟ هذا السؤال يقودنا إلى تحليل عميق للعلاقة الجوهرية بين الثقافة والأمن، وكيفية توظيف الإرث الفني والتراثي لتعزيز المنعة المجتمعية في مواجهة الأخطار المعاصرة.

الإشكالية

تكمن الإشكالية في الفجوة بين الإمكانات الهائلة للفنون والتراث في تعزيز الأمن القومي العربي، وبين محدودية توظيفها في السياسات الراهنة. فمن ناحية، يشكل التراث والفنون مخزونًا ثقافيًا قادرًا على توحيد الشعوب وصياغة وعي جمعي مقاوم. ومن ناحية أخرى، نجد أن كثيرًا من الدول العربية تتعامل مع هذا الإرث بوصفه ترفًا ثقافيًا، وليس استثمارًا استراتيجيًا في الأمن والهوية.

وهذا يطرح تساؤلات جوهرية: هل يمكن اعتبار إهمال التراث والفنون تهديدًا مباشرًا للأمن القومي؟ وكيف يمكن تحويلهما إلى أدوات فاعلة في مواجهة التطرف والغزو الثقافي؟ وما هي السبل الكفيلة بتحقيق التكامل بين السياسات الأمنية والسياسات الثقافية في العالم العربي؟

التحليل

1. الفنون والتراث كذاكرة مقاومة

يمثل التراث، بشقيه المادي (كالمتاحف والمواقع الأثرية) واللامادي (كالأغاني الشعبية والحكايات والأمثال)، سجلًا حيويًا للهوية العربية. فهو ليس مجرد شواهد على الماضي، بل أداة لصياغة الحاضر والمستقبل. فعندما يتم إحياء التراث الشعبي، كالحكايات البطولية أو الأغاني التقليدية، فإنه يعيد ربط الأجيال الجديدة بجذورها، ويخلق لديهم مناعة ضد محاولات طمس الهوية.

على سبيل المثال، تعمل الملاحم الشعبية، مثل "السيرة الهلالية" أو "عنترة بن شداد"، على ترسيخ قيم الشجاعة والكرامة، وتقدم نموذجًا للبطولة العربية الأصيلة في مواجهة السرديات الاستعمارية أو التغريبية. كما أن الفنون البصرية، كالسينما والمسرح، تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل الوعي الجمعي. ففيلم مثل "المومياء" لشادي عبد السلام لا يروي قصة أثر مصري فحسب، بل يكشف الصراع حول الهوية والذاكرة في مواجهة محاولات السطو الثقافي.

2.الفنون كأداة لمواجهة التطرف والانقسام

في ظل تصاعد الخطابات المتطرفة التي تستغل الفراغ الثقافي لتجنيد الشباب، تبرز الفنون كبديل إبداعي قادر على تقديم رؤى أكثر انفتاحًا وتعددية. فالمسرح، مثلًا، كان دائمًا وسيلة لنقد التطرف وتعزيز الحوار، كما في أعمال المسرحي السوري سعد الله ونوس التي عالجت قضايا الاستبداد والانقسام.

كذلك، تشكل الفعاليات الثقافية، مثل مهرجانات جرش في الأردن أو معرض الشارقة للكتاب، مساحات للتعايش بين الثقافات المختلفة ضمن إطار الهوية العربية الجامعة. لكن المشكلة تكمن في أن كثيرًا من الحكومات العربية لا تستثمر بما يكفي في هذه الأدوات، مما يترك الساحة مفتوحة أمام الخطابات المتشددة التي تقدم نفسها كممثل وحيد للهوية.

3.العولمة والاختراق الثقافي: الفنون كخط دفاع

في عصر العولمة، حيث تتدفق المنتجات الثقافية الغربية (من أفلام إلى مسلسلات ومنصات رقمية) بلا حدود، تواجه الهوية العربية تحديات جسيمة. فكثير من هذه المنتجات يحمل قيمًا لا تتوافق مع السياق العربي، ويساهم، عن قصد أو غير قصد، في تغريب الذائقة الجمعية.

هنا يأتي دور الفنون المحلية كحصن ثقافي. فالمسلسلات العربية الناجحة، مثل "باب الحارة" أو "الجماعة"، تقدم سرديات بديلة تعكس هموم الناس وقيمهم، وتنافس الخطابات المستوردة. كما أن المشاريع الثقافية الكبرى، مثل متحف اللوفر أبوظبي أو مكتبة الإسكندرية، تثبت أن الاستثمار في الثقافة ليس ترفًا، بل وسيلة لتعزيز القوة الناعمة العربية في العالم.

4.التحديات الداخلية: بين الإهمال والاستغلال

رغم هذه الإمكانات، تواجه الفنون والتراث في العالم العربي إشكاليات كبرى، أبرزها:

- **ضعف التمويل والمؤسساتية**: فميزانيات الثقافة في معظم الدول العربية لا تتجاوز 1%، مقارنة بنسب أعلى بكثير في الدول التي تعتبر الثقافة جزءًا من أمنها القومي.

- **الانقسامات السياسية** :حيث يتم توظيف التراث أحيانًا لخدمة أجندات محلية ضيقة، بدلًا من توحيد الرواية العربية.
- **الاستهلاك السلبي للفنون** :فبعض المجتمعات أصبحت تستهلك الفنون كترفيه فقط، دون وعي بدورها في تشكيل الهوية.

الخاتمة

الفنون والتراث ليسا مجرد زينة ثقافية، بل هما حصن الأمة في معركة البقاء والهوية. وإذا كان الأمن القومي يعني حماية الحدود والاقتصاد، فإنه يعني أيضًا حماية الذاكرة والوعي الجمعي. لذلك، لا بد من اعتبار الثقافة ركنًا أساسيًا في الاستراتيجيات الأمنية العربية، عبر:

- تعزيز الصناعات الثقافية المحلية.
- دمج الفنون والتراث في التعليم والإعلام.
- إنشاء مؤسسات عربية مشتركة لحماية الإرث الثقافي.

فكما قال المفكر مالك بن نبي: "إن الحضارة تُبنى بقيمها قبل أن تُبنى باقتصادها". والفنون والتراث هما وعاء هذه القيم، وحمايتهما هي حماية لمستقبل الأمة.